يكذب من قال إن حدبته ... في ظهره من عبيده حبل .

هذا قياس في غير سيدنا ... يصح إن كان يحبل الرجل .

وقال أيضاً : الكامل .

كم ذا التبظرم زائد عن حده ... ما كان قبلك هكذا الحدبان .

ما طال في الليل البهيم سجوده ... إلا ليركع فوقه السودان .

وقال أيضاً : المتقارب .

إذا كلبة ولدت سبعة ... فقف واستمع أيها السائل .

وإن كلبة ولدت تسعة ... تزاوجن فالفاضل الفاضل .

وقال فتيان الشاغوري : الكامل .

عجباً لأحدب في دمشق وكتبه ... هن الكتائب عثن في الحدباء .

آراؤه شهب البزاة فسل بها ... حلباً إذا انقضت على الشهباء .

وكأنه الزوراء والأقلام أسهم ... ه بها يفري كلى الزوراء .

وفيه يقول ابن الخيمي : الخفيف .

يشبه القوس صورة فلهذا ... قد غدت في النفوس منه نبال .

قلت : إلا أنني ما أعرف أحداً كان في عصره من الشعراء المشهورين إلا وقد مدح القاضي الفاضل كابن سناء الملك وابن مماتي وابن الدروي وابن قلاقس وابن الساعاتي وابن النبيه وابن نفاده والرشيد النابلسي والتعاويذي . وقال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ونقلت ذلك من خطه : كان القاضي الفاضل يبكر كل يوم سحرة إلى مصر فيقف على باب الموفق بن قادوس حتى يركب ويسايره إلى القاهرة ويذاكره ويستفيد منه فإذا وصل إلى القصر مضى لمنزله وأقام إلى الظهر ثم يركب ويقف على باب القصر فإذا خرج صحبه إلى مصر قال : ورأيت أوراقاً سود القاضي الفاضل في ظهرها شيئاً من كلامه وشعره وهي استدعاءات بجلبان لعلوفات الحمام الرسائلي بالإسكندرية وصورة خطه بصحة المستدعى به وكتب عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف وخطه بذلك عندي .

وعندي بخطه في إجارة استأجر فلان ابن فلان من ديوان الرباع السلطانية بثغر الإسكندرية وفي آخرها الشهادة على المستأجر . وكتب عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف . وهو كان يباشر هذا الديوان . فالإجارة منه والشهادة على المستأجر بخطه وهذا فيه نظر . قلت : ما في هذا نظر لاحتمال أن يكون الناظر غيره وهو الذي آجر المستأجر والفاضل كان شاهد الديوان .

وقال محيي الدين كلاماً آخره أن الوزير شاور لما وزر الوزارة الثانية استخدم الفاضل في ديوان المكاتبات شريكاً للشيخ الموفق أبي الحجاج يوسف بن الخلال . وقال الصاحب كمال الدين بن العديم : وقال لي القاضي بهاء الدين ابن شداد قاضي حلب : دخلت على القاضي الفاضل أول دخولي عليه داره ومعي العماد الكاتب فلما خرجنا قال لي العماد : كيف رأيت القاضي الفاضل ؟ قلت : رأيت رجلاً قد أتاه ا أربعة أسباب : السعادة وهي تدعو الناس إلى الميل إليه والاشتمال عليه وأتاه ا العلم فإنه كان عالماً مطلعاً على سائر العلوم آخذاً من كل نوع منها بأوفر سهم لا يجتمع به صاحب علم إلا ويخوض معه في علمه وذلك من أسباب السعادة لأن الناس يميلون إلى إرشاد علمه .

الثاني وهو كذلك فإنه كان من أكثر الناس ورعاً وكان وقته لا يخليه من تلاوة قرآن أو التسبيح وإن اتفق من يكلمه في حاجة كلمة ثم عاد إلى ما كان عليه وهذا أيضاً يدعو الناس إليه فإنهم يميلون إلى ذي الدين .

والثالث الجاه وكان من أوفر الناس جاهاً عند السلطان الملك الناصر وأقربهم منزلة وكان أعظم الناس ميلاً إليه .

والرابع المال وكان كثير المال جداً حتى أن وكيله ابن سناء الملك قال : كان دخله في كل يوم خمسين ديناراً .

وقال القاضي جمال الدين ابن شيث على ما شاهدته مسطوراً قال : كان للقاضي الفاضل C بمصر ربع عظيم يؤجر بمبلغ كبير فلما عزم على الحج ركب ومر به ووقف عليه وقال : اللهم إنك تعلم أن هذا الخان ليس شيء أحب لي منه أو قال أعز علي منه اللهم فاشهد أنني وقفته على فكاك الأسرى . وسار إلى مكة وهو إلى يومنا وقف وأظنه صناعة التمر التي بمصر على البحر